

تفسير البحر المحيط

. @ 390 @

ويكفر بها في موضع نصب على الحال ، والضمير في معهم عائد على المحذوف الذي دل عليه قوله : يكفر بها ويستهزأ أي : فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين ، وحتى غاية لترك القعود معهم . ومفهوم الغاية أنهم إذا خاضوا في غير الكفر والاستهزاء ارتفع النهي ، فجاز لهم أن يقعدوا معهم . والضمير عائد على ما دل عليه المعنى أي : في حديث غير حديثهم الذي هو كفر واستهزاء . ويحتمل أن يفرد الضمير ، وإن كان عائداً على الكفر وعلى الاستهزاء المفهومين من قوله : يكفر بها ويستهزأ بها ، لأنهما راجعان إلى معنى واحد ، ولأنه أجرى الضمير مجرى اسم الإشارة في كونه لمفرد ، وإن كان المراد به اثنين . . { إِنْ زَكَّكُمْ إِذَا مَثَلُكُمْ } حكم تعالى بأنهم إذا قعدوا معهم وهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها ، وهم قادرون على الإنكار مثلهم في الكفر ، لأنهم يكونون راضين بالكفر ، والرضا بالكفر كفر . والخطاب في أنكم على الخلاف السابق أهو للمنافقين ؟ أم للمؤمنين ؟ ولم يحكم تعالى على المسلمين الذين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين بمكة بأنهم مثل المشركين ، لعجز المسلمين إذ ذاك عن الإنكار بخلاف المدينة ، فإن الإسلام كان الغالب فيها والأعلى ، فهم قادرون على الإنكار ، والسامع للذم شريك للقائل ، وما أحسن ما قال الشاعر : % (وسمعك من عن سماع القبيح % .

كصون اللسان عن النطق به .
%)

قال ابن عطية : وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات ، ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة كقول الشاعر : % (عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه % .
فكل قرين بالمقارن يقتدى .
%)

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر ف قيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم فحمل عليه الأدب ، وقرأ : إنكم إذاً مثلهم . ومَنْ ذهب إلى أن معنى قوله : إنكم إذاً مثلهم ، إن خستم كخوضهم ووافقتموهم على ذلك فأنتم كفار مثلهم ، قوله تنبو عنه دلالة الكلام . وإنما المعنى ما قد مناه من أنكم إذا قعدتم معهم مثلهم . .
وإذا هنا توسطت بين الاسم والخبر ، وأفرد مثل ، لأن المعنى أن عصيانكم مثل عصيانهم ، فالمعنى على المصدر كقوله : { أَنْزَلُوكُمْ مِنْ لَدُنْكُمْ لِيَجْزِيََكُمْ } وقد جمع في قوله :

{ ثُمْ لَا يَكُونُوا أَهْلًا لَكُمْ } وفي قوله : { حُورٌ * عِينٌ * كَأَمْثَالِ
الْلؤلؤِ الْمَكُونِ } والإفراد والمطابقة في التثنية أو الجمع جائزان . وقرء
شاذاً مثلهم بفتح اللام ، فخرجه البصريون على أنه مبني لإضافته إلى مبني كقوله : لحق مثل
ما أنكم تنطقون على قراءة من فتح اللام ، والكوفيون يجيزون في مثل أن ينتصب محلاً وهو
الطرف ، فيجوز عندهم زيد مثلك بالنصب أي : في مثل حالك . فعلى قولهم يكون انتصاب مثلهم
على المحل ، وهو الطرف . .

{ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا }
لما اتخذوهم في الدنيا أولياء جمع بينهم في الآخرة في النار ، والمرء مع من أحب ، وهذا
توعد منه تعالى تأكد به التحذير من مجالستهم ومخالطتهم . .

{ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُّونَ بِكُمْ وَلَئِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ
قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ } وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ
{ المعنى الذين ينتظرون بكم ما يتجدد من الأحوال من طفر لكم أو بكم ، فإن كان لكم فتح
من الله قالوا : ألم نكن معكم مظاهرين . والمعنى : فاسهموا لنا بحكم إننا مؤمنون ، وإن
كان للكافرين أي اليهود نصيب ، أي : نيل من المؤمنين قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، أي :
ألم نغلبكم وننتمكن من قتلكم وأسركم ، وأبقينا عليكم ، ومنعكم من المؤمنين بأن
ثبطناهم عنكم ، فاسهموا لنا بحكم أننا نواليكم فلا نؤذيكم ، ولا نترك أحداً يؤذيكم . قيل
: المعنى أن الكفار واليهود هموا بالدخول في الإسلام فحذرهم المنافقون عن ذلك ، وبالغوا
في تنفيرهم سيضعف أمر الرسول ، فمنا عليهم عند حصول نصيب لهم بأنهم قد أرشدوهم لهذه
المصالح ، فيكون التقدير : ومنعكم من اتباع المؤمنين والدخول في دينهم فاسهموا لنا .
وقيل : المعنى ألم